

شاهنامه الفردوسي... بين القومية الإيرانية والإنسانية العالمية د. ذبيح الله صفا

ت: د. مصطفى البكور

تفوق أهمية الشاهنامه في الأدب الفارسي مستوى البحث في أبوابها والتحقيق فيها؛ فهي آية في الفصاحة والبلاغة، وهي قرآن العجم ومرآة مصقولة للمعرفة والعلم، وتحوي أفكاراً حماسية وغزلية وحكمية متنوعة في أرفع مظاهر الكلام الفارسي وأبهاء، وهذا ما يدركه كل باحث منصف ذو علم وذوق.

على أن الأهمية القومية والوطنية للشاهنامه في إيران لا تختلف عن أهميتها الأدبية، وتتمثل في حفظ الحس العرقي والشعور القومي، وإحياء المفاخر الإيرانية الغابرة.

لقد شكل ظهور الشاهنامه في عالم الأدب الفارسي أساساً لنهضة خاصة ما زالت قائمة، تجلّت في نظم الكثير من القصص الحماسية، أو الحماسات الدينية والتاريخية منذ القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر الهجري، وأضحت أداة لخلق الكثير من الآثار الحماسية. لكن أيّاً منها لا يرقى إلى مستوى الشاهنامه وأهميتها.

والحديث عن أهمية الشاهنامه ونفوذها في إيران عبر التاريخ، يقودنا إلى الحديث عن المقام الذي اكتسبته في العالم، وشكل أساساً لجذب أنظار الشعوب الأخرى.

شاهنامه الفردوسي أكبر كتاب فارسي نال حظوة في شتى أرجاء العالم، وأهم دليل على ذلك، هو تلك الترجمات المتعددة التي أنجزت لها، والدراسات المفصلة والشمولية التي دوت حولها بشتى لغات العالم:

أول ترجمة كبيرة للشاهنامه قام بها الفقيه الأجلّ قوام الدين الفتح بن علي بن محمد البنداري، من أهالي أصفهان؛ حيث ترعرع هنالك، ومن ثم سافر إلى الشام في حدود عام ٦٢٠ هـ وانصوى في خدمة الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب المتوفى عام ٦٢٤ هـ في دمشق، وقام بنقل الشاهنامه إلى العربية نزولاً عند رغبته.

علاوة على هذا الكتاب، فالبنداري لخص كتاب تاريخ سلاجقة أنوشيروان بن خالد وزير محمود بن محمد بن ملكشاه الذي كتبه بالعربية عماد الدين الأصفهاني، وقد طبع هذا الكتاب مرتين في ليدن والقاهرة.

تمت ترجمة البنداري على أساس النسخة الأولى للشاهنامه التي أنجزت عام ٣٨٤ هـ، وسميت بالشاهنامه، وتصرف المترجم في النص يتلخص في حذف بعض القصص القصيرة ومقدمات الفصول، ومواعظ الفردوسي وحكمه، وتقصير الرسائل والخطب والوصايا وأوصاف ميادين القتال وسلاح الحرب، وغير ذلك من هذه الأمور. بناءً على ذلك، يمكن عدّ ترجمة البنداري تلخيصاً لشاهنامه الفردوسي. وقد قام الدكتور المرحوم عبد الوهاب عزام بطبع هذه الترجمة في مجلدين في القاهرة عام ١٩٣٢ م. بعد أن أضاف إليها مقدمة مفصلة في بيان خصائص الشاهنامه، وشرح أحوال الفردوسي والبنداري، كما ذيل قصة كل ملك من ملوك الشاهنامه بنبذة عن أسس أساطيرهم، لكنها هي الأخرى مازالت ناقصة، وتحتاج أيضاً إلى التكميل.

ومن الترجمات الأخرى للشاهنامه، تلك التي أنجزها أحد الأتراك، واسمه علي الأفندي عام ٩١٦ هـ؛ إذ نقلها إلى التركية شعراً، وهي كاملة غير منقوصة.

وثمة ترجمة إلى النثر التركي، قام بها رجل اسمه مهدي من رجال بلاط السلطان العثماني عثمان الثاني عام ١٠٣٠ للهجرة.

وفي عام ١٠٦٣ هـ قام أحد المقرّبين إلى دار شكوه بن همايون نائب سلطنة لاهور، واسمه توكل بيك، بتلخيصها بالنثر الفارسي استجابة لرغبة أحد معارفه في البلاط، واسمه شمشيرخان، وأسمائها منتخب التواريخ، ويحوي هذا الكتاب على بعض أشعار الشاهنامه أيضاً، ويتضمّن موضوعات الشاهنامه حتى موت الاسكندر على شكل أكثر اختصاراً وإيجازاً مما هي عليه ترجمة البنداري.

وهناك كتاب اسمه «شاهنامه النثر» لأحد إيرانيين الهند، وقد استفاد أيضاً من منظومة «زرادشت نامه» لزرادشت بهرام بن بجدو عند حديثه عن أحوال زرادشت. وقد قام المستشرقان الانكليزيان هايد وسراوسلي بطبع بعض أجزاء هذا الكتاب ونشره.

وفي القرن السادس عشر الميلادي، أنجزت ترجمة للشاهنامه إلى اللغة الجورجية، وهي ترجمة شعرية ونثرية حرّة قام بها الأديب الجورجي المعروف سرافيون ساباش فيلي (١٥١٦م). ولم يوفق سرافيون بترجمة كامل الشاهنامه؛ حيث أكملها بعد موته عدد من المترجمين المجهولين.

كما أن هناك ترجمة أخرى للشاهنامه إلى اللغة الجورجية، تمت استجابة لرغبة أحد الأمراء الجورجيين وإصراره اسمه خسرو تورمانيدزه (١٥٨٨م)، وهاتان الترجمتان إلى الجورجية قام بترتيبهما وتدوينهما المؤرخ والمستشرق الجورجي المشهور جورج جانيديزه في أواخر القرن الثامن عشر.

والحق، أن روايات شعبية كثيرة حول الشاهنامه قد شاعت بين الشعب الجورجي تسمى في مجملها باسم ((رستومياني)).

أول طبعة لقسم من رستومياني أنجزت على يد أستاذ جامعة تفليس المستشرق جوستن أبو لادزه عام ١٩١٦، وما تبقى من هذه القصص، تمت طباعته في جمعية التاريخ وعلم السكان الجورجي في تفليس عام ١٩٣٥.

أما أول من تناول الفردوسي والشاهنامه من الأوربيين، فهو الإنكليزي سرويلىام جونز، حيث عمد في كتابه المتعلق بشرح الآداب الآسيوية إلى ترجمة مقطعات من الشاهنامه عام ١٧٧٤ م، لكن جونز لم تكن لديه المعرفة اللازمة عن أحوال الفردوسي، وعدّ الشاهنامه أثراً ناجماً عن عدد من الشعراء مجهولي الأسماء واستثنى الفردوسي من بينهم.

ثم قام مستشرق إنكليزي آخر يعرف الفارسية جيداً واسمه (لومسدن) بإنجاز ترجمة بديعة للشاهنامه؛ لكنه لم ينشر منها سوى قسم يشتمل على مقدمة بالإنكليزية وملحق بالفارسية.

بعد لومسدن يمكن أن نعدّ أهم ترجمة للشاهنامه حتى موت رستم تلك التي تمت في ألمانيا على يد جورس عام ١٨٢٠، وكانت سبباً في جذب أنظار العموم إلى الشاهنامه. ومن ثم قام الإنكليزي تورنر ماكان عام ١٨٢٩ بنشر شاهنامته مع مقدمة فارسية وإنكليزية وفهرس للمفردات الصعبة. وقد أنجزت طبعات حجرية عدّة في الهند اعتماداً على شاهنامه ماكان.

وفي عام ١٨٧٣ قام المستشرق والشاعر الألماني العالم (فريدريش روككرت) بنظم قصة رستم وسهراب بالألمانية، ولأنه كان شاعراً معروفاً فقد اتسمت ترجمته المنظومة بلطف وجمال خاص، ولم يبتعد عن النص الأصلي للشاهنامه كمّاً أو كيفاً، وكانت هذه الترجمة سبباً في الشهرة الواسعة للشاهنامه في الآداب الأوربية، وأدت إلى رواج قصة رستم وسهراب وانتشارها في البلدان الأوربية.

وبناء على هذه الترجمة الرفيعة عدّ روككرت واحداً من أعظم المترجمين الألمان وأكثرهم مهارة. وقد حاول روككرت أن يحاكي البحر المتقارب للشاهنامه في نظمه بالألمانية، إلا أن التوفيق لم يحالفه كما ينبغي الأمر.

في عام ١٨٥١م قام مستشرق ألماني آخر واسمه (شاك) بإنجاز ترجمة كاملة للشاهنامه إلى الألمانية، وتشتمل أيضاً على شرح أحوال الفردوسي، وعمد شاك أيضاً على نظم بعض أقسام الشاهنامه، وقد اعترف النقاد بقيمتها النقدية الكبيرة في اللغة الألمانية وآدابها.

منذ عام ١٨٣٨ حتى ١٨٧٨م، قام جول مول بنشر أهم ترجمة للشاهنامه إلى اللغات الأوروبية. ولد جول مول في مدينة اشتوتغارد، وتتلذذ على يد المستشرقين الفرنسيين المعروفين سيلوستر دوساسي، و آبل رموزا، وفي النهاية درّس في كولج دوفرانس، وانتخب لمنصب رئاسة الجمعية الآسيوية، وتوفي عام ١٨٧٦م.

طبعت ترجمة مول على مرحلتين منذ عام ١٨٣٨ حتى ١٨٧٨؛ أي إلى ما بعد سنتين من موته. وتقع في سبع مجلدات من القطع الكبير، وفي مقابل كل صفحة من شاهنامه الفردوسي تقع ترجمتها الفرنسية. وقد دوّن مول مقدّمة على كل مجلد من مجلدات ترجمته السبعة، وأرفق بالمجلد الأخير ملحقاً مهماً يتضمّن فهرساً للأسماء، وخلاصة عن قصة كل واحد من الملوك والأبطال، مع ذكر صفحاتها.

تعدّ مقدمة المجلد الأول لترجمة مول إحدى أهم الدراسات حول الشاهنامه والفردوسي والآثار الحماسية الإيرانية، ومعظم الآراء التي أوردتها مول ما زالت جديدة وقابلة للاستفادة والنقل. كما تعدّ هذه الترجمة من بدائع المطبوعات الأوروبية في القرن التاسع، تبعاً لجمالية الطبع والتزيينات التي حوتها.

علاوة على ذلك؛ فالمتن الفارسي لشاهنامه مول من أشهر طباعات الشاهنامه دقة وصحة، فقد بذل هذا العالم العبقرى جهوداً كبيرة من أجل المقارنة بين العديد من نسخ الشاهنامه التي كانت في حوزته، وقامت زوجه بعد موته بنشر النص الفرنسي لترجمته في قطع مناسب، يقع في سبع مجلدات مع مقدمة مستقلة لتلك المجلدات، وذلك خلال الفترة الواقعة بين ١٨٧٧ و ١٨٧٨م.

بعد مول، قام الألماني وولرس بترجمة الشاهنامه إلى اللاتينية، بعد مقابلة نسخة شاهنامه تورنر ماكان مع نسخة مول، والاستفادة من الحواشي العميقة لفريدرش روككرت وترجمته للشاهنامه. وقام مستشرق ألماني آخر واسمه لاندوير بمتابعة طريقه، إلا أن عمله لم يكتمل.

علاوة على هؤلاء المترجمين والناشرين المشهورين للشاهنامه في أوربا، هناك قسم آخر من المستشرقين تجشّموا العناء في هذا الطريق،

وقام كل منهم بنشر جزء من الشاهنامة أو جميعها، من جملة هؤلاء: الانكليزي إتكينسن الذي قام في عام ١٨١٤م بنشر قصة رستم وسهراب في كلكتة، وتتضمن المتن الفارسي مع ترجمتها الإنكليزية المنظومة المقفاة. كما عمل على تلخيص الشاهنامة نثراً حتى نهاية قصة الإسكندر، ونشرها عام ١٨٣٢ في لندن تحت عنوان ((الشاهنامة)). وهذا العمل يشابه تماماً ما قام به توكل بيك الذي أشرنا إليه سابقاً.

ومن ترجمات الشاهنامة الأخرى، تلك التي نظمها بالإيطالية المستشرق الإيطالي المعروف بيتزي، وامتدت فترة طباعتها من ١٨٨٦ حتى ١٨٨٨م. علاوة على هذه الترجمة، قام بيتزي بنشر كتب ومقالات أيضاً حول الشاهنامة. وتعد ترجمته هذه من الآثار الأدبية الإيطالية المشهورة، وقد اقتدى في عمله هذا بمتن شاهنامة تورنر ماكان.

ومن الترجمات أيضاً ما قام به جوكفسكي؛ حيث نظم قصة رستم وسهراب بالروسية، وعدت من الآثار الروسية المشهورة.

ولد جوكفسكي عام ١٧٨٣ وتوفي سنة ١٨٥٢م، وكان من علماء الفارسية الكبار في روسيا. ومن الترجمات تلك التي قام بها المستشرق الروسي المعروف أ.كريمسكي؛ حيث نظم الشاهنامة بالروسية منذ مطلعها حتى سلطنة منوچهر، وقد طبع هذا الكتاب مرتين، الأولى في لفوف عام ١٨٩٦، والثانية في كييف عام ١٩٢٢.

ومن الترجمات الروسية الأخرى تلك التي أنجزها سوكولوف نثراً، وتتضمن جميع موضوعات الشاهنامة منذ البداية حتى نهاية سلطنة فريدون، وقد طبعت في موسكو عام ١٩٠٥م.

وأخيراً، قام الشاعر الروسي لوزيمسكي بنظم ترجمة الشاهنامة التي قام بها ف. روزنبرغ، وطبعها مؤسسة أكادمية.

إن إحصاء أسماء جميع هؤلاء العلماء الغربيين، علاوة على البحث في كيفية عمل هؤلاء، أمر طويل وممل، لكن درءاً للنقص، يحسن بنا هنا أن نذكر أسماء عدد آخر من كبار المترجمين الأوروبيين للشاهنامة وترجماتهم:

ترجمة هاغمان إلى اللاتينية عام ١٨٠١، استفان وستون إلى الإنكليزية عام ١٨١٥، تولورابرسن إلى الإنكليزية عام ١٨٣١، هاليستن الألماني إلى اللاتينية عام ١٨٣٩، فن استاركنفلس إلى الألمانية عام ١٨٤٠، هلن زيمرن إلى الإنكليزية عام ١٨٢٢، جورج وارنر و آدموند وارنر إلى الإنكليزية عام ١٩٠٥، بكستون إلى الإنكليزية عام ١٩٠٧، راجرز إلى الإنكليزية عام ١٩٠٧، ويليام إستيغند إلى الإنكليزية عام ١٩٠٧، والاس غاندي إلى الإنكليزية عام ١٩١٢، إسيغن إلى الألمانية عام ١٩١٩، جورج ليجينسكي اللهستاني إلى الألمانية عام ١٩٢٠، ورنريانس إلى الألمانية عام ١٩٢٢، رادوانتال إلى المجرية، آرترور كريستن سن إلى الدانماركية عام ١٩٣١، أكسل أريك هرملين إلى السويدية عام ١٩٣١، وجوزيف أوربلي إلى الروسية عام ١٩٣٤، مودي إلى الكجراتية وقد طبعها في بومباي بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٤، تيرياكيان إلى الأرمنية من قصة أردشير بابكان، وطبعت في نيويورك عام ١٩٠٩م.

علاوة على الدراسات التي قام بها المترجمون المذكورون في مقدّمات آثارهم حول الفردوسي، ومعظمها يتسم بالعمق والأهمية، فإن هناك دراسات مفصلة وجامعة أخرى عن الفردوسي والشاهنامه أنجزت في أوروبا، وأضحت حجة على الإيرانيين كي يعرفوا الفردوسي والشاهنامه كما ينبغي ذلك.

يمكن القول إن الدراسات التي قام بها فن هامر، تعد أول عمل جامع مهم كتب بالألمانية عن الفردوسي وشاهنامته بعد دراسات شك، وقد أدرجت في كتاب تاريخ الأدب الإيراني الذي طبع في فيينا عام ١٨١٨، وفيها عدّ الفردوسي أكبر شاعر حماسي في العالم.

وهناك الدراسات النقدية التي قام بها بوم غارتن في كتابه ((تاريخ الأدب العالمي العام)) وعدّ فيه الفردوسي أكبر شاعر حماسي شرقي، وأنه يماثل هوميروس.

ومن الدراسات الكلية الرفيعة، تلك التي أنجزها الألماني هيرمان إته في كتاب ((تاريخ الأدب الفارسي)) و((أشعار الفردوسي الغنائية)).

وتكمن أهمية دراسات إته في أنه أول من خاض في باب أشعار الفردوسي الغنائية وعَرَّف الأوربيين بها، وأثبت أن الفردوسي علاوة على الحماسة، كان أستاذاً عالي المقام في الشعر الغنائي.

أما أهم دراسة قام بها المستشرقون الألمان والأوربيون وأعمقها، فهي للمستشرق الألماني تيودور نولدكه وعنوانها: ((الحماسة القومية الإيرانية)) وقد طبعها في البداية في كتاب فقه اللغة الإيرانية، ومن ثم نشرها عام ١٩٢٠ في برلين ولايبزيك تحت الاسم ذاته، والحق أن هذا الكتاب أرفع نماذج الدراسات الأوربية حول الشعراء والأعلام الإيرانيين. قبل شروع دراسته عن الشاهنامه، قام نولدكه بعرض مقدّمة مختصرة حول الروايات الحماسية الإيرانية، وحينما وصل إلى مسألة تدوين شاهنامه أبو منصور، تحدّث عن نظم الدقيقي ومن بعده الفردوسي للروايات القومية.

تُعَدُّ دراسات نولدكه حول الفردوسي الأكثر شمولية في هذا الباب حتى الآن، إذ ما تزال تشكّل الأساس لدراسات جميع المحققين الذين يكتبون عن الفردوسي، وبعد إتمام دراسته عن أحوال الفردوسي، بحث نولدكه في جوانب الشاهنامه وكيفية نظمها بكل ما تحويه من جزئيات. وبعد الدراسات التي قام بها كل من أتكينسن وأوسلي، تلك التي تفتقد إلى القيمة الأدبية العميقة، فإن أهم دراسة دوّنت بالانكليزية حول الفردوسي، كانت للمستشرق الانكليزي إدوارد براون، وتقع في المجلد الثاني من كتابه تاريخ الأدب الإيراني.

وتشتمل هذه الدراسة على مجموعة من الدراسات التي قام بها كلٌّ من مول وأوسلي وإته ونولدكه وآخرون. وفيما يتعلق بمسألة سلب الأهمية الأدبية لشاهنامه الفردوسي يرى براون أنها قضية غير جدية بالاهتمام، وهي تكرار لعقيدة نارواي وأوسلي، ولا تعبر سوى عن عجز هذين العالمين عن إدراك المقام الرفيع للفردوسي في اللغة الفارسية.

أمّا أهم دراسة فرنسية عن الفردوسي وشاهنامته، فتتمثل في الأبحاث المفصّلة والمعمّقة لجول مول، وهي أوسع دراسة عن الشاهنامه قبل تلك التي أنجزها المحققون الألمان أخيراً؛ ففي مقدمات ظهور الحماسات

القومية الإيرانية والشاهنامه، يقدم مول بحثاً مفصلاً، كما أنه يبدي دقة في بيان أحوال الفردوسي والتحقيق في القصص الحماسية من بعده، بما يتناسب والأدوات والمصادر التي كانت في حوزته آنذاك؛ إلا أن اعتماده على بعض المصادر الفارسية التي تفتقر إلى الدقة والصواب جعله يقع في بعض الأخطاء. لكن رغم ذلك فدراساته عن الحماسات التالية للفردوسي مازالت تتسم بجديتها، وتصنف في عداد الدراسات الأوروبية الجيدة عن آثار الأدب الإيراني.

لقد كان جول مول أول من أثبت اعتماد الفردوسي على مصادر مكتوبة وشفاهية. وثبتت عقيدته هذه لاحقاً في دراسات نولدكه، وبعض المحققين الآخرين.

آخر أثر فرنسي مهم عن الفردوسي والشاهنامه هو كتاب ((الفردوسي والحماسة القومية)) للمؤلف هنري ماسه. والحق أن هذا الكتاب لا يحتوي على أية مضامين جديدة فيما يخص أحوال الفردوسي ومقدمات ظهور الحماسة القومية الإيرانية وتحليل موضوعات الشاهنامه ونفوذ الشاهنامه في الأدب الفارسي. فهو لا يتجاوز كونه مجموعة مهذّبة عن بعض آراء جول مول ونولدكه.

قبل مول كان هناك أشخاص كتبوا عن الشاهنامه والفردوسي وهم أمير وسنت بوف؛ فقد كتب أمير مقالاً في مجلة (العالم)، وفيه قام بإجراء تحليل بليغ لمضامين الشاهنامه، وقد عدّ الفردوسي من أكبر شعراء العالم، كما أنه أنجز بعض الدراسات والأبحاث عن الفردوسي في كتاب عنوانه ((علوم وآداب الشرق))، كما ساق سنت بوف بعض المقالات حول حياة الفردوسي وقصة رستم وسهراب، في أول مجلد من كتابه ((أحاديث يوم الاثنين)) الذي نشر عام ١٨٥٠م.

كما أن اللغات العالمية الأخرى ولا سيما الإيطالية والروسية اشتملت على بعض الدراسات والأبحاث عن الفردوسي والشاهنامه، لعل أهمها ما قام به الإيطالي بيتري والروسي كريمسكي اللذان سبق ذكرهما.

من جملة الأعمال بالغة الأهمية عن الشاهنامة، ما قام به فريتزولف؛ حيث وضع قاموساً مفصلاً ودقيقاً وقيماً للشاهنامة، وفيه ذكر جميع مفردات الشاهنامة والأبيات التي تحويها، والمعنى الذي يؤديه كل منها. أما في عام ١٩٣٥، وبمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على ولادة الفردوسي، فقد أُلقيت كلمات في طهران وبعض البلدان الأوربية عن الفردوسي والشاهنامة. علاوة على ذلك فقد نشر الكثير من المقالات والأطروحات في إيران وباقي البلدان عن الفردوسي وكلها تكمل وتوسع بعض المعلومات عن الفردوسي.

والحق أن أهم مطبوعات ذلك العام - علاوة على ما نشر في أوربا - مجموعة من مقالات وخطب العلماء الإيرانيين وغير الإيرانيين التي طبعتها وزارة الثقافة تحت عنوان ((ألفية الفردوسي))، وهناك مجموعة أخرى أيضاً قامت إدارة مجلة ((مهر)) بطبعها تحت اسم ((فردوسي نامه)). وفي عام ١٣١٣ هجري شمسي، قامت إدارة مجلة ((باختر)) التي تطبع في أصفهان بإصدار عدد خاص أيضاً عن الفردوسي.

نفوذ الشاهنامة في آداب العالم:

ما ذكرناه حتى الآن يشير بوضوح إلى النفوذ العظيم للشاهنامة في آداب العالم، فقد دَوّنت آثار عن الشاهنامة في الكثير من لغات العالم كالعربية والجورجية والأرمنية والتركية والكجراتية والإنكليزية والروسية والدانماركية والمجرية والسويدية والألمانية والفرنسية، وتجلّت، كما رأينا، في الترجمات المنثورة والمنظومة.

والحق أن الترجمات المتعددة للشاهنامة إلى اللغات الأوربية دليل على الأهمية التي اكتسبها هذا الكتاب وسط المجتمع الأوربي، ونتيجة هذه الأهمية والشيوع، فقد أثرت تأثيراً منقطع النظير في الأدب الأوربي، ولا سيما في الأدب الرومانتيكي. وكان رستم من بين باقي أبطال الشاهنامة الأكثر جذباً لأنظار الأوربيين، ومن بين من اقتبسوا من قصة رستم، وكتبوا عنها يجب أن نذكر كلمات الشاعر والكاتب الفرنسي الكبير لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩)، فقد تناول هذا الشاعر قصة رستم عام

١٨٣٥، في مجلته المعروفة (الحضارة) تحت عنوان ((طائفة من عظماء ونوابغ القديم والجديد)).

اشتهرت قصة رستم وسهراب في أوربا من بين باقي حكايات الشاهنامه أيما شهرة، حيث ترجمت إلى العديد من اللغات، ونسجت عنها منظومات جميلة؛ من ذلك ما فعله المستشرق الألماني فريد ريش روكركت، الذي ترجم قصة رستم وسهراب إلى الألمانية سنة ١٨٧٣ كما ذكرنا، كما قام أستاذ الفارسية الروسي المشهور جوكوفسكي (١٨٥٢-١٧٨٣م) بخلق منظومة رائعة وجميلة عن قصة رستم وسهراب، وقد نالت شهرة ومقاماً رفيعاً في الأدب الروسي.

ومن روائع الأعمال الأوروبية المستمدة من قصة رستم وسهراب منظومة الشاعر الإنكليزي الكبير ماتيو آرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) وعنوانها رستم وسهراب، وتعدّ من المنظومات الإنكليزية الرفيعة والمهمة.

أما غوته، الشاعر الألماني الكبير (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) الذي كان يعشق الأدب الفارسي أيما عشق، وتأثر بأفكار حافظ الشيرازي، فقد أورد اسم الفردوسي وأشار إلى عظمة الشاهنامه وأهميتها في نهاية إحدى مجموعاته الشعرية المسماة ((الديوان الشرقي من مؤلف غربي)).

وممن تأثر بالفردوسي الشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هوغو (١٨٠٢ - ١٨٨٥م) في بعض جوانب كتابه ((الشرقيات)).

وعليّنا أن نذكر الشاعر الألماني الفصيح هانري هانيه (١٧٩٧ - ١٨٥٦) الذي عرض في إحدى منظوماته الجميلة لحكاية حرمان الفردوسي من صلات السلطان محمود، وموته في حالة من الحاجة والفقر، وخروج جنازته من بوابة طوس، بينما كانت قافلة صلات السلطان محمود ترد من البوابة الأخرى.

كما نسج الشاعر الفرنسي فرانسوا أكوبه المتولد عام ١٨٤٢ قصة مشهورة وجميلة عن زيارة تيمور لضريح الفردوسي.

وثمة شاعر اسمه موريس باريس، أورد اسم الفردوسي في إحدى آثاره المسماة ((الضيافة في بلدان الشرق)).

حينما ترجمت قصص الشاهنامة إلى اللغة الجورجية، نفذت نفوذاً راسخاً في أذهان الشعب الجورجي ، إلى درجة أن في جورجيا، رواية شعبية لقصص الشاهنامة، تدعى ((رستومياني)) و((سامياني)) وغير ذلك على نحو ما رأينا سابقاً.
وفي الأدب الأرمني اشتهرت قصة رستم زال.

نفوذ الشاهنامة في الأدب الفارسي:

ما رأيناه من نفوذ للشاهنامة في شتى آداب العالم، يجعل تأثيرها في اللغة الفارسية وآدابها أمراً بدهياً ومسلماً، وهذا النفوذ يجب دراسته من جوانب عدة:

المفردات والتراكيب الفارسية، أسلوب الكلام ، المضامين والدقائق الحماسية والغنائية والحكمية ، ودورها في إيجاد نهضة في نظم القصص الحماسية أو الحماسات التاريخية والمصطنعة. لكن سنقتصر من بين الجوانب السابقة على الجانب الأخير.

تعدّ شكل نظم الشاهنامة وشهرتها في إيران أساساً لنهضة عظيمة أسهمت في خلق منظومات حماسية كبيرة؛ فمع أن الشاهنامة كانت نتيجة وثمرة لنهضة قومية إيرانية كبرى وتهدف إلى إحياء المفاخر القومية إلا أنها ذاتها قد خلقت نهضة جديدة في نظم القصص الحماسية، أو أنها دفعت تلك النهضة من أجل الاستمرار والبقاء؛ فالفردوسي أضحى رائداً لحركة استطاعت أن تحيي أبطال إيران القوميين الذين كانوا يغفون في سرير النسيان، وأكسبتهم وجوداً وشهرة كبيرة.

على أن الفردوسي لم يحقق الحياة والشهرة لجميع أبطال إيران، فكل ما فعله هو النجاح في نظم جزء من القصص القومي، لأن نظم جميع تلك القصص، إنما يحتاج إلى أضعاف مضاعفة من وقت نظم الشاهنامة، وهو أمر غير متاح لشخص واحد. وهذا الوضع ينطبق على حماسات أغلب الأمم.

حينما نظم الفردوسي قصص الأبطال، كان يمر على بعضها باختصار، فمثلاً لم يتناول قصة كرشاسب على الإطلاق، وكل ما فعله

هو الاكتفاء بإشارات مختصرة عنها. كما تجاوز تقريباً قصة سام وفرامرز، ولم يبح بأية كلمة عن قصة جهانكير وبانو كشاسب وبرزو و شهریار، ودليل ذلك لا يتعدى إحدى هذين الأمرين:

إما أن الفردوسي كان يلم بكل هذه القصص، لكن مشاعره كانت تميل إلى البطل رستم من بين جميع أبطال عائلة كرشاسب، ورآه جديراً بالوصف، وغض النظر عن باقي القصص التي لم تكن تنثيره كثيراً، وأما أن كل تلك القصص كانت في دفاتر كبيرة مستقلة عن بعضها بعضاً ولم تصل إلى يد الفردوسي، فاضطر إلى إغفال ذكرها.

والحق أن الشعراء اللاحقين للفردوسي، وظاهراً كان يعيش معظمهم في محيط حياة الفردوسي؛ أي خراسان، قد تناولوا هذه القصص المتروكة، وقاموا بنظمها إلى درجة أنه بعد قرن من وفاة الفردوسي، قد نظمت معظم القصص المشهورة التي تفوق قصص الشاهنامه جمالاً وجلالاً، وبالتالي اكتسبت الحماسة القومية الإيرانية صورة متكاملة.

مجل هذه المنظومات الحماسية كان تقليداً للشاهنامه، وجميعها كان على البحر المتقارب المثنى المقصور أو المحذوف. ولعل أسباب اختيار هذا الوزن تكمن في أمرين:

الأول: شهرة شاهنامه الفردوسي، والتصوّر العام في أن الأشعار الحماسية لا يليق بها سوى وزن منظومة الفردوسي.

الثاني: تناسب هذا الوزن مع الأفكار الحماسية والتراكيب البطولية، وتقبله مختلف أبعاد هذا الفكر، وشدة استيعابه للمفردات الفارسية بما يتفق وضرورات الحماسة القومية الإيرانية.

على أن جميع هؤلاء الشعراء، ورغم الاقتداء بالفردوسي وتقليدهم الشديد له، إلا أنهم لم يستطيعوا مجاراته.

ومؤلفو تلك المنظومات مجهولون وغير معروفين باستثناء واحد أو اثنين منهم، والغريب أنهم قد اهتموا أكثر بشرح القصص المتعلقة بعائلة كرشاسب.

ومع أن جميع تلك المنظومات عبارة عن تقليد للشاهنامه إلا أنها موثقة بالمصادر المكتوبة والروايات الشفهية المستندة. ■